دعوة إلى اليأس!

بيت فى البرارى . . الطريق إليه محفوف بالمآسى . . مالك البيت وساكنه اليأس الأسيل الخد العزيز النفس . . اضطهده الزمن اللئيم وفطم عنه النعيم ، عبث به بخته الذميم ، ورماه فى الحضيض . . انكسر قلبه النبيل ولم تنكسر عزة نفسه . . وبإباء وشمم رفض أن يمد يده إلى الأمل متسولا فتات الشفقة . . وببطولة صمد لكرابيح الأيام وتباريح الآلام . . فشابت الأيام التى لا تشيب من صمود اليأس الأسيل الخد العزيز النفس .

قرر تولستوى أن يوزع ثروته على الفقراء . . فاندلعت نيران الحرب العائلية فى القبيلة التولستوية بين رئيسها وعياله وأم عياله . . واتهزم نبى الفقر . . دمر مذهبه ونسفت مبادئه . . وانتصر عليه عياله وأمهم . . وكالذئاب نهشوا لحمه وأحلامه وآماله . . انقضوا على أرضه وأملاكه ووزعوها فيما بينهم . . وتركوه على الخديدة . . حديدة اليأس . . كما ذكرت فى الأسبوع الماضى .

أزهار من جمر ونار

أصيبت الأشجار بنوبة يأس وانتحرت . . فأظلمت الدنيا فى وجه تولستوى وملك الوله والوهل قلبه . . ثم يعد له مأوى يأوى إليه مع يأسه ، ويستظل بظله . . ماتت الأشجار ، ووارى التراب ظلالها . . وها هو ذا يأسه يبكى ويتحسب على مصيبته . . فزمجرت رياح غضبه وولولت . . ولمع الشرر فى عينيه وبرق . . واضطرمت نار الثأر فى قلبه وتأججت . . تطاير شررها وتناثر فوق يديه . . فجمع أزهار النار فى باقة ووضعها زهرة زهرة . وجمرة جمرة فى إناء الانتظام . . لتعيق بشذى فيها بستان فكره فيفوح ثأره وينتشر حول سونيا ، ويحيطها بهالاته من لهب وجمر . . فتكتوى بالنار التى يكتوى هو بها ، ويحترق نعيمها كما احترق نعيمه . .

ويسعر غيظه أحد يلف ويدور حول نفسه بسرعة خمسين ألف لفة فى الدقيقة . . ومع كل لفة يتمنى لو خنقها ليرتاح منها ، ومن وزاياها ومصائبها . . مع يقينه بأنه لن يقتلها مهما فعلت به ، تماما كما يتمنى الموت ليرتاح من عذابه ، مع يقينه بأنه لن يموت مهما سلقه وقلاه العذاب ، لأنه يموت فى العذاب وحياة العذاب . . وعند اللفة المليون بعد الألف ، فرمل تولستوى فجأة ، وبيده صلع رأسه صلعة القرعة . . وبأعلى صوته صرخ . « وجدتها ! » . . فزمجرت النار بدورها ، وأطلقت صيحة الثأر ، إنه منذ عشر سنوات تنازل إلى سونيا عن حقوقه كمؤلف عن كل الأعمال التى كتبها قبل عام ١٨٨١ . . عام « ولادته الثانية » . . ولكن هذا التنازل كان وديا لا رسميا . . ثم برضاه لإنقاذ الأسرة من الأزمة المالية التى تعرضت لها فى سنى القحط التى انعدم فيها محصول الأرض . . ولكنه الآن يندم على فعلته . . إن كل رويل ترتكبه سونيا من وراء بيع كتبه وتنقله على عياله ، يخز ضميره ويوجعه ، لتناقضه مع مبادئه ، وإذا كانت سونيا أليسته قميص العار حينما أنشأت دار نشرها لنشر مجموعة أعماله الكاملة فقد حان الوقت ليحرق قميص العار ويغلق دار نشرها . . فهو ولله الحمد لم

ليليات

يسجل رسميا تنازله لها عن حقوقه كمؤلف .

وقرصت أجراس الانتظام . . أعلن تولستوى زوجته بعزمه على خراب دارها بالتنازل عن حقوقه كمؤلف عن كل الأعمال التى كتبها إلى كل من يرغب فى نشرها فى روسيا وخارج روسيا . . فبعد اليوم لن يدخل بيته مليم واحد مصدره بيع كتبه . . فهو لا يتاجر لا بقلمه ولا بفكره ، ومؤلفاته ملك للجميع عدا زوجته وعياله !

انهارت سماء سونيا خلف الجدران . . وكالريح العاصف ثار غضبها ، وكالرعد القاصف انطلق لسانها وتبعه أتباعها وطواحينها . . فقسمت قرار زوجها وحصدته . . قطعته إربا إربا وألقت أشلاءه على الأرض وبقدميها داست عليها . . فرمقها زوجها بعين من جليد وعين من صقيع . . فهو رجل رابط الجأش ثابت الجنان . . لا يستفزه رعد السحاب ولا يستخفه طنين الذباب . . ثم بهدوء حك بظفره بقعة على باقة قميصه الفلاحى . . فجن جنون سونيا . . أهى هذه البقعة التى يريد أن يتخلص منها ؟ إن نجوم السماء أقرب إليه . . ستظل عالقة به ورابضة له . . بقعة على باقه وغلا حول رقبته . .

وواصل تولستوى حك البقعة بظفره . . فاختفت . . فانسحب الهواء من رئتى سونيا واختنقت . . لم تفتح النافذة إنما الحقيبة . . انهمرت دموع من زئبق على خدودها . . حدق تولستوى فى دموعها وذابت مقاومته . . زحفت صلاته إلى غضون وجهه واستوطنت فيها مع مرارته . . لمعت النجوم فى عينيه ، وسقطت نجمة نجمة ، ودمعة دمعة على وجنتيه وأحرقت قراره . . ولى وادى الدموع تزوج دمع سونيا دمع تولستوى . . فطلقها الخلاف . . فجمعت السماء ركامها ، وطوية طوية وقفت على رجليها ، ثم بسطت جناحيها وطارت ، وعادت إلى مكانها . . ووافق تولستوى على أن تحتفظ سونيا بحقها فى نشر مؤلفاته التى كتبها قبل عام ١٨٨١ . . ووافقت هى على أن يتنازل عن حقوق المؤلف عن الأعمال التى كتبها بعد ذلك .

وبعد أسبوع ولد يوم ٢١ يوليه ١٨٩١ أبلغ تولستوى زوجته أنه كتب رسالة إلى الصحف يوضح فيها أبعاد قراره . . فهاجت وماجت سونيا وانفجرت فى وجه زوجها . . تأسيا متناسية اتفاقها الذى تم من تحت القرص ومن وراء القلب . . ارتفع زياطها وعياطها . . وانهالت عليه بسياط لسانها . . إن عياله أولى بحاله من الأغراب . . إن هذا التنازل معناه نشر غسيله القذر على صفحات الجرائد وإعلان الجمهور رسميا بنزاعه مع زوجته وعياله وإهانه وإذلال من يحملون اسمه وتعريضهم للذبول والقتال ، وتطويق رقابهم بالعار . . إن كان لابد من التنازل فليتم سرا لا جهرا ، وليكتم حسناته كما يكتم سيئاته . علما بأن هذا التنازل سيئة جديدة تضاف إلى سجل سيئاته . . لأنه فى الواقع لا يؤمن فى قرارة نفسه بضرورة التنازل عن حقوقه كمؤلف إنما يفعل ذلك بدافع الغرور ، ليلمع اسمه فى سماء المجد فتحنى له الرءوس وتبجله الأقلام . . إنه من أجل أن يجذب إليه أنظار الناس ، ويرغمهم على أن يتوجوا هامته بأكاليل العار ، لا يتورع عن الخلق فهم بحصول القول ومغشوش الفعل .

ومن لم يكبح عنان لسانه ، جمح إلى غاية أوغا ملامة وآخرها ندامة . . وهذا ما حدث . . سمع تولستوى موال سبه وشتمه وذمه وهجوه ، وفقد احتماله وجلادته . . هزمت جيوش غضبه عساكر صبره ، وفقد مدرعات أعصابه فاعتزته ثورة عاتية وعبق على وجه زوجته حقده وحقده وبغضه ومقته . . وبكل جراحه وآلامه قال لها إنها « أبشع مخلوقة فى الوجود » لأنهم لها فى دنياهاسوى جمع المال لانفاقه على عيالها ، وإفساد أخلاقهم به . . ثم بكل أصوات روحه وجسده صرخ فى وجهها مشيرا بيده إلى الباب : « اخرجى عن وجهى ! اخرجى عن وجهى ! . . سئمت أفعالك وأفعالك . . ضجرت منك ومن خلقك وخلقك ! . .

سقط الليل على رأس سونيا . تسلل من شعرها إلى مسام جلدها إلى أصابع قدميها . . فجرت بسرعة ريح الشمال إلى الحديقة وجلست تحت ظل شجرة التفاح . . إن ليلها بلا نهاية . . الكلمة تحاصرها وتحبسها بين الفم واللغة . . انطفأ نور عينيها وتكلست مصباح وجهها . . البياض عندها سود ، والقريب منها بعيد . . أقرب الناس إليها أبعدهم منها . . أعز إنسان لديها فى الوجود يطردها كأنها كابوس حياته . . ياسم الله ، كيف يقدر بحق الله أن يقول لها « ضجرت منك ومن خلقك وخلقك ! وياسم الله . كيف يتجرأ ويقول لها « اخرجى عن وجهى ! » ، ستظل نفسها . . نعم ستظل نفسها . . إذا انتحرت فسوف تغرب عن وجهه إلى الأبد . . سوف تتركه إلى الأبد دمعة وجلة ترتعش على خد الزمن ندما وحسرة . . أبدا لن تنتهى حسرته عليها . . أبدا لن ينتهى حزنه لفراقها . . إنها على يقين من ذلك بل إنه من شدة حزنه عليها سوف يحسدها هو الحى على موتها وراحتها الأبدية . . وهو على حق فى ذلك . . فسوف ترتاح إلى الأبد من فظاظته وقساوة قلبه .

إن ليلها صامت وصمته طويل وكئيب . . إن الضفادع لا تنقق لتخرج عما فى قلبها من غصص . . والبومة تخل عليها بنعيقها . . والغربان تنتظر موتها لتنهب وتعدو . . وفجأة رفرف طائر وخفق قلب الشجرة . . فتصورت سونيا أن الليل الحنون يرتجف من أجلها . . ثم سرعان ما خاب أملها . . فجست فى وجه القمر الذى يناطح الشمس ليحتل مكانها فى السماء . . ثم أخرجت من جيبها المفكرة التى لا تفارقها ، وكتبت : « الموت هو الحل الوحيد للنزاع القائم بينى وبين ليوفوتشكا » . . ثم استنشقت عطر النجوم البارد وودعت شجرة التفاح .

انتهى زمن التفاح الذى كانت تقضمه قطعة ، وزمن الطيور الحريفة التى كانت تناديها . . حان وقت الموت . . عفرت وجهها بالتراب ، وحشت فمها بالرماد . . أراحت عينيها فوق أجفان الليل ، وأرهفت قدميها بالمشى فوق النجيل . . فارتعلى فستانها ، وانداس ذيله تحت كعب حذائها . . فانبطحت على وجهها فوق العشب الأسود . . قرصت أذنها حشرجة العشب الذى يحتضر . . فنهضت وجرت فى اتجاه محطة « كوزلوفكا » هذه المرة مستندة على قضبان السكك الحديدية ومستقرم عجلات القطار جسدها .

ثم نحت من بعيد رجلا ذا لحية عظيمة يرتدى قميص الفلاحين ويلوح له بيده . . قفز قلبها فى فمها ورقص فوق شفتيها . . إنه ليوفوتشكا . . إنه يحيا . . إنه يجرى فى اتجاهها . . إنه متلهف إلى

رؤية حلقتها التى أدمى سأمة منها . . ثم سرعان ما خاب أملها وغاص قلبها فى قدميها ودبدب بقل على العشب البيت . . إن الرجل ذا اللحية والقميص الفلاحى هو كوزمينسكى ، زوج أختها ثانيا . . ومن شدة غيظها أجهشت فى البكاء ، وحكت له ما دار بينها وبين زوجها وإصرارها على الانتحار ، فكلمها بصوت العقل فاستمعت إليه بقلبها . . وعادت معه كيلا يتيتم عيالها ، وبالذات فاينشكا آخر العنقود . . ثم فى الطريق إلى البيت ، هربت منه وجرت إلى نهر « الفورونكا » الذى يخترق ضيعتها بأمل أن تستحم فيه ، فيظن زوج أختها أنها تنوى إغراق نفسها فيطلب بوليس النجدة ، فيأتى لبوفوتشكا ويحملها بين ذراعيه ويعود بها إلى البيت . . ونزلت فى النهر ثم خرجت منه على الفور . . فالماء بارد فى برودة الموت . . فعادت إلى بيتها وهى تحمد أذيال خيبتها .

صعدت إلى حجرة فاينشكا ، وانتشلته من سريره ، وضمته إلى صدرها ، وانهالت عليه بقبلاتها ثم أعادته إلى سريره خوفا من أن يجوت بين يديها فجأة . . وسمعت من بعيد ليوفوتشكا يتحدث ويضحك مع ضيوفه ، ومع أولاده وبناته الكبار ، فالتقر القلم من درج مكتبها ووثب فى يدها ، وجرى مرتعشا على الورق ، وكتبت : « ليوفوتشكا بيوده يضحك ويلهو مع عياله وضيوفه ، وكأن شيئا لم يكن . . لن يعرف أبدا أنى كنت على وشك الانتحار بسببه ، وإذا أخبره زوج أختى بذلك فلن يصدقه .

لحن الحنان الأخرس

وقبل منتصف الليل بقليل ، وبعد أن تفرق الضيوف ، وذهب كل منهم إلى حجرته ، توجه تولستوى إلى حجرته . . تحمت سونيا خطواته من بعيد ومدت يدها إلى كتاب كان فى انتظارها فوق المنضدة التى إلى جوار سريرها . . فتحته ولم تقرأ . . ترقبت وعدت . . واحدا ، اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة . . انفتح . . الباب ودخل ليوفوتشكا . . تعلقت بعينيها بأول حرف فى أول سطر . . سألها زوجها :

– أتقرئين ؟

لم ترد عليه . . تأملت على الصفحة الكلمات التى لا تراها . . فتقدم تولستوى بخطوات ذئب إلى مدينة النوم . . خطف الكتاب من يد زوجته ، وألقاه على المنضدة . . جلس على حافة السرير إلى جوارها . . وحطت يده على يدها . . لفحت النار أصابعها وأحرقتها . . ولسع الخليد أصابعه وجمدها . . فارتفع صوته الدافىء وسألها :

– ألا تزالين حانقة على ؟

– .....

– أقررت أن تخاصمينى إلى الأبد ؟

– .....

– لماذا تغمضين عينيك ؟ . . . أرؤية وجهى توجعك إلى هذا الحد ؟

– .....

– تكلمى ! . . . المرأة الخرساء ترعبنى ! . .

– .....

لانت سونيا فى بكائها وسحبت يدها من تحت يد زوجها . . أطفأت شمعة المصباح وانسدت تحت الغطاء وأراحت رأسها على الوسادة . . فتنهدت شفتا تولستوى على جفونها . . فخفق قلبها كما يخفق قلب أبى الهول الحجرى . . لم ييأس تولستوى ورسم بشفتيه دائرة حول عينيها ، وأحاط بقبلاته ظلمة عبوسها . . اندهشت عيناها تحت جفنيها وارتشفت قطرة قطرة عسل شفتيه . . أحست بدفء فى جفونها ، ولكنها لم تفتحهما ثم أدارت ظهرها لزوجها ونامت على الجنب الذى يرتجها . . فارتفع أنين السرير ، وساد الحجرة الصمت الحريح .

انسحب تولستوى من مدينة النوم ، تاركا أمله فى رعاية أعمدة السرير . . خلع قميصه وسرواله ، وارتدى جلبابه . . ثم تسلل إلى السرير واندس تحت الغطاء . انتظرت سونيا بصبر هزيمته الساحقة . . زحف ليوفوتشكا ببطء فى اتجاهها . سحبت سلمة الصد . . لم يبال بها وواصل زحفه ، وأراح خده على كتفها . . تركت له كتفها فهى محنكة تعرف من أين تؤكل الكتف . . أحس تولستوى بدنيه وإن لم يتكلم . . استنشقت سونيا عطر ندمه الصامت ، وتنهدت امتنانا له على إقراره الصامت بذنبه . . صور له وهمه أنها ساحته . . . فعرفت أنامله على كتفها لحن الحنان . . لم يحن سونيا على أنغامه . . فتحت أنامله من العزف ، فاستبدلها بشفتيه وبهما تحت السماء على كتفها . . فتسولت السماء نيابة عنه عفوها . . فخجلت سونيا منها ، ورصعت خد زوجها بنجمة فاطم ولون القبلة البنفسجية . . فحلقت شفتا زوجها فوق أجنحة المحبة وهبطتا فى مطار أذنها . . همس لها أرق وأعذب كلمات الحب والحنان . . فتفتحت أزهار الربيع فى مسامعها ، وتكلمت بلغة البنفسج تحت جلدها . . وتدحرجت من فمها النجوم والأزهار والقبلات . . وبركانها غطت وجه زوجها . . فلمع الحب وسطع . . وشمشم صوزه ، وبهر الحب الخلد وأعماه بنوره .

ودارت محركات الانسجام . .

ونشبت معركة فى السماء بين الليل والنهار . . انهزم فيها الليل . . فجمع خلاهله وهرب مع ظلماته . . وبزغ الفجر ولم يرحب به أحد . . فسونيا نائمة ، وزوجها أيضا ، وأشرقت الشمس ، فاستيقظ تولستوى ، وأيقظ سونيا بقبلاته المئتهية .

ودارت من جديد محركات الانسجام . .

وقرعت أجراس الانتقام

وفى الأيام التالية ، استمرت المناوشات والمناورات والصد ثم الوصال والفراشق بالكلمات ثم التراشق بالقبلات . . وبعد كل عناق يشاهده البدر أبو الهلال ، أو شمس الفجر أم الشروق ، يندم هو وهى على الحوار الذى دار بين جسديهما فى غياب الحب عنهما ويبث كل منهما ندمه وشجنه إلى يومياته .

ويجرى قلم سونيا فوق الورق ، وتكتب بقل : « ٢٧ يوليه ١٨٩١ ، إلى شديدة الحنق على نفسى . . أيقظنى ليوفوتشكا فى الفجر بقبلاته المئتهية . . صدمت هجومه فى أول الأمر . ثم أشفقت عليه من يأس جسده . . واستسلمت ، ثم تناولت قصة فرنسية « قلب امرأة » لبول بورجيه وقرأت وأنا فى السرير حتى الساعة الحادية عشرة والنصف . . هذا ما لم أفعله قط فى حياتى . . إن هذه النشوة التى أستسلم لها لا تغتفر لمن فى سنى . . بعد شهر سيكون عمرى سبعا وأربعين سنة لا سبع عشرة سنة . . إن زوجى لحفا رجل عجيب ! . . فى نفس اليوم الذى تشاجرنا فيه شجارا لرب السماء ، راح يبث فى حبه وهيامه وتيمه فى ، مؤكدا فى مدى ولعه وتعلقه فى . . بل قال فى : « إننا أسعد زوجين فى العالم رغم خلافاتنا ومشاحناتنا » . . وقال أيضا : « حبنا لا مثيل له فى الوجود لأن نازه أبدا لا تخمد . . » ولكن هذا الحب الذى يتكلم عنه حب جسدى بحت . . وهذا هو سر فشل حياتنا الزوجية . . أنا أيضا مولعة به ، وإن كنت فى قرارة نفسى أبغض هذا اللون من الحب . . إنى مازلت أحلم بحب عذرى ومناجاة روحية » .

وقلم تولستوى هو الآخر راح يجرى فوق الورق ويكتب بيأس . . « ٧ أغسطس ١٨٩١ : أعيش بالحواس وفى الخطيئة . عبدا للشهوة ورقيقا للرغبة . . يارب ساعدنى يارب اهدنى إلى الصراط المستقيم : . . إلى أتعذب . . وعذابى لا يطاق » .

وتفانى الحب فى حب الزوجين . . أخلص فى ولائه ووفائه لها . . وحافظ على عهده لها ، ولم يضجر يوما من سقيها كئوس المرارة الممزوجة بالحلاوة . . فالحب مذكر لا مؤنث . . وأخلاقه من أخلاق الرجال . . وحفظ العهد من شرائط الرجولية . . أما الخصومة فلأنها ولدت أنثى فى اللغة فهى مؤنثة . . والتلون من شنشنة النساء فى المظهر والجوهر . . فى الأزياء وفى الأخلاق . .

ولذلك تبرمت الخصومة من ودها ومودتها لتولستوى وزوجته . . وتغيرت أحوالها وتبدلت أمورها . . فصار ودها جفاء ومودتها لتولستوى عداوة . . وغادرت بهما وهجرتهما . . فانبرى نزاع سونيا وتولستوى بالشقاق يرمى إلى حد ما الطرفين . . واقق تولستوى على أن يترك لسونيا حقوقها فى نشر أعماله السابقة لولادته الثانية . . ووافقت هى على أن يتنازل عن حقوقه كمؤلف عن باقى أعماله ، لمن يشاء نشرها دون أن يقبض منه روبلا واحدا .

وفى يوم ١٦ سبتمبر ١٨٩١ ، أرسل تولستوى إلى الجرائد الكبرى فى روسيا رسالة جاء فيها : « أتنازل عن حقوق كمؤلف إلى كل من يرغب فى نشر مؤلفاتى فى روسيا أو فى الدول الأجنبية . . باللغة الروسية أو فى ترجمة لها . . علما بأن هذا التنازل يسرى فقط على الأعمال التى كتبتها بعد عام ١٨٨١ والتى نشرت فى الجزء بن الثانى عشر والثالث عشر من مجموعة « أعمالى الكاملة » كما أن هذا التنازل يسرى أيضا على المؤلفات التى سوف أكتبها فى المستقبل . . » .

وكان تولستوى يود أن تنشر رسالته فى الجرائد وإلى جوار توقيعه . توقع سونيا كى يبرهن للجمهور ، أن هذا الإجراء غير موجه ضدها . . ولكن سونيا رفضت أن تلبى له رجاءه . . وهى معذورة . . فهذا التنازل ما زال فى نظرها جناية لا جنحة هى وعيالها ضحاياها . . وعلى الجانى أن يتحمل وحده وزر ذنبه ومسئولية جنايته . . هذا علاوة على أنها لا توقع بإمضائها على أقوال رجل يخطىء ثم يرتجع . . إنه أهدى لها يوم عيد ميلادها فى ٢٢ أغسطس ١٨٨٦ ، رواية « موت ايفان ايليتش » لتنشرها فى الجزء الثانى عشر من « أعماله الكاملة » التى تصدرها دار نشرها . . ثم سحب منها الرواية ليهديها للبشرية .

ونشرت الجرائد الروسية نص رسالة تنازل تولستوى . . فرأتها سونيا ونبح قلبها . . فتركها تولستوى تنبح ، وراح هو ينعم بهى الفقر . . ولكن هذه حكاية أخرى يطول شرحها . □

للأذكياء فقط

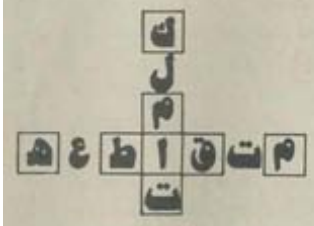

هذه مسابقة من نوع جديد.. لايتطلب حلها منك سوى ان تعمل فكرك.. وتستدعى معلوماتك.. راقب الحروف فى الأعلى الأسهم.. وواصل الحل بالطريقة العادية.. هل وفقت للحل الصحيح؟ أخبر مدى توفيقك عددا نقاط المربعات أسفل كل بلغة للحصول على جملة مفيدة

لغز الأيدى السوداء

أبناء أسرة هانابل فى هولندا لكون أيديهم ذات لون أسود وملمس خشن منذ طفولتهم !!

٢٥ كوبون مسابقة أورينت

الاسم : .....

العنوان : .....

المهنة : .....

يرفق هذا الكوبون مع حل المسابقة ويرسل إلى مجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل / القاهرة ويكتب على الظرف مسابقة أورينت ورقم الكوبون المسلسل

آخر موعد لتلقى الرد على الكوبون رقم (٢٥)
يوم ٣٠ / ١١ / ١٩٨٠